إلى الأخت المسلمة

قصة قصيرة

(1) مقدمة

يا من وصف الله سبحانه صحبتها الأولي بأنها لها وهن، والثانية بأنها سكن.

يا من أوصى بها رسول الله صلي الله عليه وسلم خيرا، وأضفي عليها وصف "القوارير" فكانت لها صفة وذِكرا.

يا من حملتنا مضغات وأعلاقا، وأطعمتنا أجنة وأطفالا، وصاحبتنا شبابا ورجالا، ورعتنا شيوخا كبارا.

يا نصف الأمة الرحيم ، وكلّ قلب الأمة الرقيق المؤنس الكريم

يا أماه، يا أختاه، يا بنتاه، يا زوجاه...

إليك نتقدم ، بكلمات في حلقات متتابعات، تبدأ من العدد القادم، يشهد الله سبحانه أنها خالصة لوجهه، وإنما يراد بها الإصلاح والتوجيه، حين يجب الإصلاح والتوجيه، فهي من قلوب محبة شفيقة، ومن نفس لنفسك شقيقه، عارفة بمكانك من الحياة، وقدرك من الإنسانية. فان أشارت عليك نفسك، أو أشار عليك من لا يرعى لك حرمة، يوما، أن فيها ما يتوهم أنه مجاف لفهمك، أو أن فيه انتقاص لقدرك، فلا تسمعي لهذا الداعي الشيطانيّ، وأعيدي قراءتها متأنية مستهدية، فسيتبين لك أنها صافي الدسم، وأن ما يعرضه المخالف هو محض السم في آنية العسل!

سنتحدث عمّا هضم لك من حقوق باسم الإسلام، كما سنتحدث عمّا عليك من واجبات غابت عن عقول الكثيرات بحكم التربية التي فرضت علينا عقب الغزو الفكري الغربي. سنرى، بعين الإخلاص لما يجب أن يكون، لا بمجرد عين الخلاص مما هو كائن، أين الخلل إن كان هناك ثمّـة خلل، وكيف السبيل إلى الإصلاح حين يعتقد البعض أن لا سبيل إلي الإصلاح.

ومشاركتك في هذا الأمر ضرورة يحتّمها الشرع ويمليها العقل. مشاركتك بقراءة المادة المعروضة، والإنصاف في مراجعتها والحكم عليها، ثم في مراسلتنا بما يعنّ لك من آراء. ولا تخافي ولا تخجلي! فسلفك الصالح من كريمات المسلمات العالمات قد أدّين دورهن، في إطار الشرع وحيز الأدب، فكن مربيات أجيال وحاملات علم وسبّاقات للخير. ونشهد الله أننا معك لا عليك، إذ كيف يخاصم نصف الإنسان نصفه الآخر؟، وان قدر علي ذلك وخاصمه فترة، فهل رأيت أعجز أو أقلّ حيلة ممن يمشي في الأرض وهو يرتكز علي نصف دون نصف.

د طارق عبد الحليم تورونتو 1998

(2) كنز الرضا

انحنت الجارة المخلصة علي جارتها ، بعد أن روّعها الصراخ والعجيج الصادر من منزل جارتها، دالاّ علي أن الدّار قد اشتعلت بواحدة من تلك الخصومات العائلية المزمنة، وهمست في أذنها أن "ماذا نفعل؟ تلك هي إرادة الله" أو كلمات مثل ذلك مما يقال في مثل هذه المواقف لتهدئة الخاطر. مسحت السيدة الغاضبة دموعها وقالت في نبرة استسلام مخلوط باليأس:"ونعم بالله...لكن" قالت الصاحبة "لكن ماذا؟" قالت السيدة في نبرات متهدجة هي أقرب للبكاء منها للسكون "ألا ترين كيف يعاملني زوجي؟ أبعد كل ما أفعله في المنزل من خدمات له و لأولاده، يكون جزائيّ التعنيف والزجر؟" قالت الصاحبة "قبل أن أرد علي تساؤلك، وأحكم لك أو عليك، ألا تقصّين عليّ القصة، كيف بدأت وكيف تطورت، فيكون قولي سديدا ونصحي مفيدا!" ارتخت السيدة في مجلسها، واتخذت هيئة من يتأهب لسرد رواية تحتاج إلى كلّ التركيز والانتباه، ثم شرعت تقول:"كنت في زيارة لفلانة، فعرضت عليّ ما اشترته من متاع وحليّ وقالت لي أن زوجها قد أعطاها ما يشترى أضعاف ذلك إلا أنها اكتفت، تطوعا، بما رأيت، علي سبيل الكفاية والقناعة!!. فلا أخفي عليك، شعرت بالغيرة وعدت إلى المنزل مكدّرة المزاج، يتحدث إليّ زوجي فأردّ من طرف لساني، وقد كشّرت عن أنياب غضبي وكاد الشّرر يتطاير من عينيّ. فلمّا سألني ما الأمر، انفجرت فيه كالقدر الذي طفح ببخاره، وذكرت له ما أنا فيه من قلة الحظ وسوء "البخت" وأسمعته ما أسمعه من حين إلى حين، من أن مثيلاتي قد فتح الله عليهن رغم أنني أفضل وأجمل وأعرق أصلا وأكثر أدبا، الست أحفظه في غيبته فلا أعرّض نفسي للرجال، أليس في هذا الكفاية؟! أخبرينيّ، بالله عليك، أليس معيّ الحق في الضيق والحنق؟ " قالت الجارة المخلصة:"أتريدين ردّا يهدأ الروع ولكن لا يحقق الاستقرار" قالت السيدة "لا، بالله عليك، أريد منك قولا مخلصا أعرف به أين أقف من الحق، فقد عرفتك ذات حكمة وفهم، إلي جانب حسن الدين والتفقّه فيه" قالت الصاحبة، أم هانئ:"جزاك الله خيرا علي حسن ظنك، فلأجيبنّك بما يشفي صدرك ويهدّأ من روعك، علي حسب ما دلّتنا عليه شريعتنا السمحاء في كتاب الله وسنّة رسوله صلي الله عليه وسلم، فأنصتي لي وأحسني السمع، فما كل منصت بسامع. وسيكون ردّى من شقين، شقّ عام والآخر خاص.

أما الشق العام، فاعلمي، يا عزيزتي أن الإيمان بالقضاء هو شقّ الإيمان ، فالإيمان إيمان بالله، وإيمان بما قضى، وكليهما آخذ بناصية الآخر، فمن لم يؤمن بما قضى الله سبحانه، لم يؤمن بالله أصلا. ولكن الأمر هنا أن الإيمان بالقضاء ليس إيمان ضِيقٍ وحنق، ولا إيمان إذعان وإكراه لا، بل هو إيمان رضى واستحباب، وكيف لا والمؤمن يعرف معرفة اليقين أن الله إنما يقدّر الخير لعباده فلا ينسب له إلا الخير، قال تعالي "ولا يرضى لعباده الكفر" وإنما كفروا بإرادتهم. فليكن تسليمك لقضاء الله من جنس تسليمك لله، تسليم مستحب راض، بل فرح مستبشر، وكيف لا وهو قضاء الله؟.

وأما الشق الخـاص، فيا عزيزتي، أترين زوجك كادحا الليل والنهار سعياً وراء الرزق الحلال لكما ولأولادكما؟ أترينه يمسك عن العمل طلبا للراحة والاسترخاء في حين أن البيت يحتاج للمؤن والزاد؟ أن كان ذلك كذلك، فهو حديث آخر معه وليس معك. ثم أتعرفين لزوجك محل آخر يصرف فيه ماله مما ليس من الشرع في شيء؟، فان لم يكن له مصارف أخرى، فأخبريني، بالله عليك، علي ماذا تتحسرين، ولماذا تقيمين الدنيا ثم لا تقعدين؟ أليس تعرفين أن القدرة هي مناط التكليف؟ أليس يقول المولى عز وجل "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"؟ ثم أشكواك من بخل عرفته عنه؟ أم من رؤية للمستقبل و تخطيط للقادم من الملمّات يعرفها هو، من حيث هو الموكل بمجابهتها علي كل حال؟ إننا ما زلنا نخلط بين البخل، الذي هو إمساك المال وإحرازه رغم شدة الداعي إلى إنفاقه، وشرطه وجود المال وإحرازه وقت الحاجة، نخلط بين هذا وبين الإنفاق الواعي الذي يجري علي وفاق قول الله تعالي "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا". والله سبحانه كفانا مشقة التخمين، فبيّن السبب الداعي إلى الاعتدال وهو أن نعمل حسابا للمستقبل، وهو من باب نصيحة رسول الله صلي الله عليه وسلم بأن ندع من ورائنا مالا لأولادنا، من استطاع إلى ذلك سبيلا، أفضل من أن ندعهم فقراء يتكفّفون الناس، وهو من قبيل التخطيط المشروع غير المنافي للتوكل.

ولن أثقل عليك بذكر وجوب الطاعة للزوج، وما شابه ذلك مما ثبت في الأحاديث الصحيحة، فلعل الله سبحانه أن يقسم لنا وقتـا نتحدث فيه بإسهاب عن هذا الأمر، بعد أن يجلوا الله عنكما هذه الغمة، ولكني أشير إلى أنه لا معني للطاعة أصلا إن لم يصحبها الرضا، إذ هي، إذن، الاستسلام المضني لصاحبته، المدمّر لنفسها وكرامتها، ومن ثم فهو الصراع الدائم بين الزوجين.

ثم، يا أختي في الله، دعيني أهمس في أذنك سرّا نعرفه، نحن معشر النساء، ألا ترين أن بعض النسوة يحبون أن يتفاخروا بما ليس لديهم، وأن يتكثّروا بما ليس فيهم، وأن يظهرن أنفسهن كمن يعاملهن أزواجهن كأنهن اللؤلؤ المكنون أو الجوهر المصون، فطلباتهن أوامر لأزواجهن، و أرادتهن ملزمة إلزام الفرض الحاضر! وهن إنما يفعلن ذلك عن حسن نية، في كثير من الحالات، إظهارا للعزة وتخييلا للمعزّة، والله وحده هو العالم بما يلقين علي أيدي أزواجهن، والبيوت عورات وأسرار، كما يقال. بل إنني أذهب لأبعد من ذلك، أن المرأة التي تكثر الحديث عن مقتنياها في كل وقت وحال هي التي، في غالب الأمر، تعاني من حياة خشنة عنيفة، تداريها بالإدعاء وتخفيها بالمداراة. فهي حالة نفسية تحاول عكس الوضع القائم لتتخلص منه علي الأقل أمام الغير من الأقارب والرفيقات. وفرق بين شكر النعمة من الزوجة لزوجها بذكر محاسنه وإحسانه بشكل عام لا يؤرق الغير ولا يثير الغيرة، وبين ذلك التظاهر والادعاء في كلّ حال وفي أي مجال.

فلا تغترّى، يا أختاه، بكل ما تسمعين، ولا تكوني كمن وصفهم أحمد شوقي في قوله: يا له من ببغاء عقله في أذنيه فالكلام يجب أن يعرض علي العقل، قبل أن يقال فيه صادق أو غير صادق.

أما قولك أنك ترتدين الحجاب، والحشمة من الثياب، وأنك لا تختلطين بالرجال، ولا تخوضين فيما يخوض فيه الغير من الأوحال! فهذا فرض عليك من ربّ العالمين، لا تمنينّ به علي زوجك، بل الله يمنّ عليك أن هداك لهذا، والأمر هنا في العلاقة الزوجية وحق كلّ طرف علي الآخر لا في حقّ الله عليك.

ثم، أخيرا، لا تنسي الفضل بينك وبين من أفضيت إليه وأفضى إليك، فهو زوجك وراعيك، وهو، إن صحت رجولته، بحسن اختيارك له في مبدأ الأمر، لأفضل من يوازن بين المصالح القائمة والقادمة، ويجعل لكل أمر من أمور الحياة مقياسا ومقدارا. وقد أمنته علي نفسك أفلا تأمنيه علي أن يجعل المصروف تبعا للمألوف المعروف بلا تقتير ولا إسراف!!

قالت الزوجة "جزاك الله عني وعن زوجي خير الجزاء، فوا الله ما رأيت الأمر من كل جوانبه قبل حديثنا اليوم، وإني لأرجو أن يكون له تتمة في وقت لاحق" ثم ابتسمت ابتسامة الراضية عما سمعت، وقامت لتقضي إلى جارتها حق الضيافة.

(3) درجة الفضل .. وفضل الدرجة

ها أنا ذا قد وفيت بما وعدت ، وجئتك زائرة ، ردّا لجميل صنعك يوم أن أعدت الهدوء والاستقرار إلى منـزلي " قالت السيدة لجارتها أم هانئ، بعد أن استراحت في جلستها " ولكني أتحدث إليك ، ولا أخـفي عليك ، في العديد مـن الأمور التي تتزاحم في فكري ولا يستوعبها عقلي ، وعقول الكثيرات من بنات جنسنا ، بشأن تلك العلاقـة المشتعلة بين الرجل والمرأة ، والتي تحوّلت في زماننا هذا إلى علاقة ظاهرها الوفـاق وباطنها الشـقاق !" قالت الجارة الصديقة " إن كلامك ليملأني خجلا ، فما عرفت من نفسي القدرة علي الإقناع من قبل ، وإنما هو الفهم عن الله سبحانه ثم الصدق في النصح ، ليس إلا.. ، وعلي كل حال ، فما الذي يقلقك هذه المـرّة ، يا أختاه ؟" قالت السيدة: " إن كثيرا من الرجال يدّعون التميّز عن النساء تميّـزا أصليا يجعلهم أعـلي مرتبة وأرفع قدرا ، ويتلـون من كتاب الله ما يحسبنه مصداقـا لذلك ، من قولـه سبحانه: " ولهـن مثـل الـذي عليهـن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة " البقرة 228. فهم يردّدون الآية الكريمة في كل منـاسبة يختلف فيها رجل وامرأة ، للحطّ من مكانتها دونه ولإمـلاء رأيـه عليها ، حتى صـرنا نخجـل من أنفسـنا في بعـض الأحيان ، بل ونشعر بمقاومة داخلية ، وأعوذ بالله من ذكر ذلك علانيـة ، لمعنى الآية الكريمة .. كما تعرفين عن موقفنـا ، بشكل عام من الآيات الكريمة الخاصـة بالتعدد في الزواج..! فهل من رد في هذا الأمر يشفي العقل العليل ويروى الصـدر الغليل ؟

ابتسمت الصاحبة ، واعتدلت في جلستها ، وقالت: " ألا ما أشبه الناس بالناس ! فـقد سمعت هذا القـول ممن لا أحصي عـددا في كل بقعـة من بقاع المسلمين حول الأرض ، شرقا وغربا . وأبدأ بأن أقول لك ، يا أختاه ، أن هوّنـي عليك فـان الله سبحانه ما افـتأت علي بنات جنسنا ، فما جعل علينا هو العدل وما فرض لنـا هو العـدل ، فهو العـادل بإطلاق ، وذلك من مستلزمات الإيمـان.

"أمّا قول القائل من الرجال: أن المـرأة أقل من الرجل ، بحكم الفطرة وطبيعة الخلقـة ، فهذا قول معتسف لا يصح أن يحمل علي عمومه ، أو أن يخرج عن حدوده ، فالرجل ، ولا شك ، مختـلف عن المـرأة في أمور كثيرة ، وكلّ ميسّر لمـا خلق له. فالرجل أقوى في البنية وأقدر علي تحمل الصعاب ، وهو أحـدّ ذاكرة وأكثر تحـكما في عواطفه وانفعالاته ، ولهذا فان الله جعل عقدة النكاح وأمر الطـلاق في يده دون المرأة ، ثم جعل شـهادتـه بشـهادة امرأتين ، وعلل ذلك بإمكانية النسيان ، مع أن النسيان ممكن الوقوع من الرجل كذلك ، ولكن الأمر هنا أمر الأكثر احتمالا . كل هذا حق لا ننازع فيه ، ولـكن.. " قالت السيدة بنبرة المتلهف: " نعم.. أريـد أن نصل إلى ولـكن !..." ، ابتسمت الجارة وقالت: "ولكن هذا يمـلي علي الرجل أن يكون أجـدر بتحمـل عبئ تلك المسؤوليـة ، مسؤوليـة الريـادة والتقـدمة. فالأمـر أمـر تكليـف لا تشـريف ، وسيـكون لنا رجعة إلى هذا الأمر ، وأمر آيات التعدد وخـلافها في وقت لاحـق إن شاء الله تعـالى.

أما عن الآية التي ذكرت فإنها قد سيقت في مجال الحديث عن العلاقة الزوجية ، أي العلاقة بين الرجل والمرأة ، فكان التساوي فيما لهن وما عليهن هو الآخر في مجال الحياة الزوجية كما تملي الآية بنصّها ، وهي إشارة إلى حق المساواة ، بشروطها ، يمر عليها الرجال مر الكرام !! وأمّا الدرجة التي عني الله سبحانه ، فهي "درجة الفضل" ، فالرجل ، لما كان له من قوة وقدرة ، عليه أن يرتفع إلى درجة الفضل في معاملة زوجه بالإحسان إليها والتوسيع عليها والرفق بها ، لا بالتعالي والتضييق عليها ! فان فعل ذلك ، وحاز درجة الفضل ، استحق فضل هذه الدرجة ، أي كان علي زوجه أن تعامله بفضل هذه الدرجة التي استحقها، فتقدّره وترفع من شأنه وتضعه حيث وضعه الله من درجة القوامة . أمّا من لم يحز هذه الدرجة من الفضل ، فلا يلومن إلا نفسه إن اضطرب بيته بالشقاق والتفكك ، فهو لم يرتقي إلى الخلق الذي أراده الله منه ، وجانب الفضل وعرّض نفسه لغمط القدر وسوء الذكر من أهله . فالفضل في هذا الموضع ، إذا ، هو فضل "واجب" لا فضل "حق" ، فضل "عطاء" لا فضل "استعلاء" ، فضل "بذل" لا فضل "أخذ" . وأقسم لك يا أختاه أن هذا المعني للدرجة التي ذكرت في الآية الكريمة قد خطر لي منذ ليالي معدودات ، ثم شاء الله أن أطّلع بعدها علي قول لابن عباس ، حبر الأمة وفقيهها ، ذهب فيه إلى ما ذهبت إليه ، ووافق فيه فهمه للآية فهمي ، قال ابن عباس رضي الله عنه: " الدرجة : حض الرجال علي فضل العشرة ، والتوسع للنساء في المال والخلق ، أي أنّ الأفضل ينبغي أن يتحامل علي نفسه " ، فكان ذلك التوافق بين قولي وقول ابن عباس عندي ، علم الله، أفضل من حمر النعم كما تقول العرب.

فهي ، إذن ، علاقة متبادلة مزدوجة ، تضع علي عاتق الرجل مسؤولية الرقي إلى درجة الفضل والإحسان ، بأداء واجباتها والصبر علي تكاليفها، وتتطلب من المرأة الاعتراف بفضل هذه الدرجة وتقديرها ، بأداء حقها ومراعاتها.

قالت السيدة وقد انبسطت أساريرها " الحمد لله الذي سمّى نفسه الحق ، فان ذلك المعنى قد أثلج صدري وجعلني أشعر بكرامة المرأة وحقها الذي جار عليه بعض الرجال لقلة علمهم بمعاني الشريعة الحقة . وإني لأود أن أقترح عليك أمر أرجو أن يحوزَ رضاكِ وقبولكِ، وهو أن نعمم فائدة هذه الجلسات المباركة علي عدد أكبر من الأخوات بأن ندعو من أراد منهن إلى لقاءات للمحاورة والحديث فيما ينفعنا في يوم معادنا ، فما رأيك ، دام فضلك ؟" قالت الجارة الصديقة: " جزاك الله خيرا ، ولا مانع عندي من ذلك، فليس أفضل من جلسات العلم ، التي فضّلها رسول الله علي جلسات الذكر ". قالت السيدة: " فالي لقاء قريب إن شاء الله تعالي."

(4) يا معشر النساء تصدّقن ..1

وعلى موعِدِهن، التقت النساء الأربع في منزل أم عمرو، وبعد أن جرى بينهن ما يجري من مقدمات عن حال الأهل الأولاد، قالت أم هانئ:"نبدأ بسم الله الذي علّمنا ما لم نكن نعلم، من منكن ستبدأنا بالحديث اليوم ؟". تبادلت الزائرات نظرات سريعة وساد صمت قصير قطعته أم الفضل بقولها:"اسمحوا لي أن أبدأ بالحديث، وهو أمر أحسب أن له علاقة وطيدة بموضوع الأسبوع الماضي، فقد حيّرني ذلك الأمر من أمور الشريعة منذ أيام شبابي، بل أحسبه قد حيّر الكثيرات منا، نساء القرن العشرين، وهو: كيف نتعامل مع بعض ما ورد في الحديث، مما قد يوحي إلى العقل النسائيّ المتحضّر التحامل على جنس النساء، ويأبى قلب المؤمنة أن يطاوع هذا الوحي الشيطانيّ، دون سند من تفسير معقول أو أثر منقول يوضح وجه الحق فيه ؟". قالت أم هانئ، وقد رأت ملامح الموافقة على ما ذكرته أم الفضل باديا على وجوه رفيقاتها: "اسمعن يا أخوات، واسمعن بقلوبكن وعقولكن جميعا؛ إن مما يخالف أبسط قواعد العقل والمنطق أن يخلق الله سبحانه نصف الخلق من جنس النساء ثم يتحامل عليهن – حاشا لله – أو يضع من قدرهن، لا لسبب إلا لأنهن نساء ولا غير! ذلك قول المتدينين من النصارى الذين يرون أن آدم إنما حُرم من الرحمة واستحق الطرد من الجنة بسبب حواء التي أغوته بأكل التفاحة من شجرة الخلد، وكانت نصير الشيطان ومثال الحية الرقطاء التي سرى سُمّها في دم آدم فأفسده وألقى بإثم الخطيئة الأولى على رأس عقبه إلى يوم الدين، فالمرأة في هذا التصور هي مصدر الشرور، كل الشرور، وهي مصدر اللعنات، كل اللعناتِ، فما لأهل الغرب النصراني يتصنّعون الرحمة بالنساء بما اصطنعوه من معاني "الحركة النسائية" و"حقوق المرأة" وخلاف ذلك مما يوحون به، بل ويصرحون في كثير من الأحيان، من ضرورة تحرير المرأة المسلمة من ضروب الذلة والمهانة التي تحياها المرأة المسلمة! وهو حديث يطول يا أختاه، فما لك لا تحددين أمرا بذاته أزعجك وتعصيّ على عقلك أن ينزّله منزله من الفهم السديد؟". قالت أم الفضل: "فما قولك، أم هانئ، في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أننا ناقصات عقل ودين، إن صحت نسبة ذلك القول إليه صلى الله عليه وسلم ؟" اعتدلت أم هانئ في جلستها، وظهر على ملامحها الجد، كل الجد، ثم استغفرت الله وشرعت تقول:" ما قلتِ يا أختاه يحمل صوابا يجدر بي أن أنبه إليه قبل أن أبدأ حديثي، وهو أننا يجب أن نتيقّن من صحة ما نسمع من أقوال تنسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن نحكم عليها بالصحة أو الخطأ، فإن كثير من الناس ينسب القول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالي أصحّت النسبة أم لم تصح، وفي هذا ما فيه من الإفتئات على الدين.

أما عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ذكرت آنفا منه كلمة، فهو عن أبي سعيد الخدريّ قال:"خرج رسول الله في َأضحَى أو فِطر إلى المصلى، فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدّقن فإني

أُريتُكن أكثر أهل النار، فقلن وبم يا رسول الله ؟ قال: تُكثِرن اللعن وتَكفُرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِ الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل، قلن بلى، قال فذلك من نقصان عقلها، قال أليس إذا حاضت لم تصلي ولم تصم ، قلن بلى، قال: فذلك من نقصان دينها"، وقد رواه البخاريّ في باب "كفران العشير أو كفر دون كفر، ومسلم والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجة وأحمد في المسند والدارميّ بألفاظ متفاوتة، واللفظ الذي رويته للبخاريّ، وزاد بقية الأئمة " فجعلن ينزعن قلائدهن وأقراطهن وخواتيمهن يقذفنه في ثوب بلال يتصدقن به"و الزيادة للنسائيّ. وفي رواية مسلم "فقامت امرأة سِطَة من النساء سَعفاءِ الخدين فقالت لم...الحديث" مسلم باب صلاة العيدين. فالحديث من ناحية الثبوت لا خلاف عليه، وما يجب أن نبدأ به فهو التسليم له وتلقيه بالقبول، إذ لا بديل لذلك إلا الانفكاك عن الإيمان..

أمر يجدر أن نذكره في هذا المقام قبل أن نشرع في الحديث عن متن الحديث النبويّ، وهو ما أدعوكن إلى التأمل فيه، أخواتي المؤمنات، انظرن إلى ردة فعل المؤمنات المخاطبات بهذا الحديث، فأولا : تلك المرأة التي سألت رسول الله والتي قلّما نسمع من يتحدث عنها أو يذكرها رغم أنها صاحبة الفضل في تعريفنا بهذا الأمر الذي نحن بصدده؛ قد وصفتها ألفاظ الحديث في مسلم بأنها "جَزِلة " أي ذات عقل ورأي، وأنها "من سِطَة النساء " أي من خيارهن، ووصفها النسائيّ بأنها "من سَفِلَة النساء " أي ليست من أرفعهن قدرا، ولا تعارض بين كونها من خيار النساء وكونها ليست من أرفعهن قدرا، وتفسير ذلك، فيما أحسب، أنها قد وّصفت في لفظ مسلم بأنها "سعفاء الخدّين" أي قد تغيّر لون بشرتها وجلدها من العمل والضنك، فهي إذن امرأة من الطبقة العاملة التي تقوم على خدمة أهلها، وليست، بتعبير أهل ذلك الزمان، من الأشراف أي ممن يقوم الغير على خدمتهن، فهي إذن امرأة عاقلة عاملة أرادت أن تعرف لمَ وُصفت وسائر النساء بهذه الأوصاف، ليس تحدّيا للقول كما هو حال السائلات من بنات هذا الزمان، بل لتعرف ما لها وما عليها فتتصرّف تبعا له، وها هنا نكتة أستشعرها بعين الرأي وشاهد الحال لا عين التحقيق و تدقيق المقال، وهي تتعلق بأن من سألت السؤال – ولم يا رسول الله - كانت من الكادحات العاملات لا من المنعّمات المرفّهات، فهل تعرف إحداكن لهذا تفسيرا ؟" قالت أم أنس: "أعتقد أنني أدرك ما تقصدين إليه، أم هانئ، فسبب ذلك أن المرفهات من النساء يعلمن أنهن ممن لم يعرفن قسوة الحياة و شدة أمرها ولم يشاركن أزواجهن في تحمّل أعبائها فكُن أكثر النساء شكاية وتبرّما بالحياة، بينما هذه المرأة الكادحة ذات الرأي والعقل قد عُمّي عليها وجه النقص، فهي تكدح مع زوجها أو أهلها لتقيم أود حياتهم وهي مشغولة بالأهم من شؤون الحياة عن مغالبة عشيرها في أمور المال والنفقة، فكانت أحرى أن تتولى السؤال عن النقص في بني حواء، من أين أتى." ابتسمت أم هانئ وقالت:" جزاك الله خيرا أم أنس، فوالله لهو عين ما أردت أن أقول، وهي الفطرة

الصادقة يلتقي عليها الفهم الراشد بين من التزم بالإسلام ورضي بشرعته، ولكنني أضيف إلى ذلك أمر آخر وهو ما أراه من أن تلك المرأة العاملة العاقلة ليست كذلك ممن تتعالى علي عشيرها بما تبذل من جهد أو تشارك به من فضل، فإن من أهم أسباب الشقاق بين الزوجين في هذه الأيام هو ما كان من عمل المرأة وحصولها على دخل خاص تراه حقّا لها من دون بيتها أو أهلها، فهي تريد أن تستأثر به لتنفقه على زينتها وأغراضها دون مشارك، بل هي تعرج على زوجها فتطالبه بالسعة في النفقة وأن يهبها "مصروفا" وأن لا يبخل عليها بمال أو نفقة! وهو موضوع قائم بذاته، سيحين أوان الحديث فيه فيما يأتي من لقاء، وما يعنينا هنا هو أن ورود السؤال من تلك المرأة بالذات يحمل ذلك المعنى، معنى الكدّ والكدح من جانبها ومعنى أنها لم ترى وجه النقص لأول وهلة إذ إنها تقضي ما عليها من مشاركة في أعباء الحياة دون أن تطالبَ بالخدم والحشم أو بالرفاهة والمتعة.

ثم نأتي، ثانيا، إلى موقف سائر المسلمات من الحديث، فإن إحداهن لم تقطب جبينها ولم تلتوي بعنقها إبداءا للاستياء وإعرابا عن القبول الكاره أو حتى عن عدم القبول، بل بدأن على الفور في معالجة الأمر وتدارك النقص وتصديق خبر الرسول دون إبطاء، فنزعن حليّهن وقروطهن وتسابقن في التبرع بها دون مجادلة في ماذا ولماذا، ذلك والله هو محض الإيمان. أما اليوم فلا تكتفي المسلمات المتحضرات! بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يناقشن في الأمر بعد ثبوته، وهو ما يضاد محض التوحيد الذي هو التسليم لله ورسوله جملة وعلى الغيب دون مماراة وتمحك، ثم السؤال عن معناه وحكمته بعد تمام التسليم له قلبا وقالبا، قال تعالى:"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شَجَرَ بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجًا مما قضيت ويسلّموا تسليما" النساء 65.

وقد كنت أرجو أن يتسع الوقت لندلف من هذه المقدمة إلى ما يحمل الحديث من معانٍ وما يقدم من وصايا، إلاّ أني أحسب أن الوقت قد أزف للانصراف، فما يليق بالمرأة المسلمة أن تبقى خارج بيتها إلى ساعة متأخرة من الليل ولو كانت في مجلس علم أو ذكر". فأومأن موافقات ثم انصرفن راشدات على أمل اللقاء.

(5) يا معشر النساء تصدّقن 2

ارتسمت ابتسامة خفيفة على محيّا أم هانئ حين نظرت في وجوه رفيقاتها وكأن على رؤوسهن الطير إذ علمت ما يدور في خلدهن. قالت:" أكُلّ هذا الصمت بسبب ما نحن بصدده من حديث عن الحديث الشريف ..يا معشر النساء تصدّقن؟" قالت أم الفضل، وقد شعرت بما ألمحت إليه أم هانئ :" على رسلكن يا أخوات، فأنتن ضُيوفيَ اليوم، وأنا امرأة أحب الدعابة وأميل إلى الضحك، فهل أنتن منتهيات!" ابتسمت السيدات ورحن في حديث عن العيال والمال حتى قطعته أم هانئ بقولها: "لنعود الآن إلى مواصلة الحديث بما انتهينا إليه في جلستنا السابقة. ولعلّكن تذكرن ما قلناه عن تلك المرأة العاقلة العاملة التي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب أن النساء أكثر أهل النار، وما قلناه من أن الواجب هو أن نتخذ خطوات نحو البعد عن النار والقرب من الجنة، وأود أن أضيف إلى ما قلت في المرة السابقة أن هذا الحديث ليس من قبيل القدر المكتوب على جبين كل بنات حواء لا فكاك لهن منه، وإنما هو من قبيل التحذير العام الذي تعمل كل امرأة على تجنب مقتضاه ما استطاعت وإلا فهي ممن حق عليهن القول، والغرض هنا هو أن نقلل من عدد النساء المخالفات ونزيد من عدد الموافقات. ولنتذكر أنه "ليس للإنسان إلا ما سعى"، وهو أمر تشترك فيه المرأة والرجل على السواء، فنحن نُحَاكَم بما نفعل، وإن كان أكثرنا من أهل النار فلا نلومنّ إلا أنفسنا، والفطنة تقتضي أن نعرف لماذا كانت النساء معرضة لهذا المصير أكثر من أقرانهن من الرجال، وإن كان للرجال شراك كثيرة نصبها الشيطان لهم من دون الجنة، وإنما جاء التحذير منها عاما منتشرا في السنة كلها، و والله إني لأحسب أن الرجل الفطن إنما يحذر لنفسه ويحاسبها أكثر مما تفعل المرأة إذ هو معرّض لأضعاف ما تتعرض له المرأة من فتن مما سنلقي عليه الضوء فيما يأتي من حديث لتكون كلّ منا منار تحذير لرجلها في هذه الحياة الدنيا، ثم أعود إلى سبب أن كانت النساء أكثر عرضة للنار من الرجال، إذ أفصح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب ذلك، وعدّده في التالي: كثرة اللعن، وكفر العشير، ونقص العقل والدين ثم استلاب لب الرجل الحازم، ونحسب أن كل هذه الأدواء إنما تأتي من نقص العقل والدين، إذ أن صيغة الحديث قد جاءت بوصف المرأة بهما كوصف ذاتيّ لها لا كصفة من خارج وهو مقتضى قوله صلى الله عليه وسلم "ما رأيت من ناقصات عقل ودين..." ، ودعونا ننظر مليّا في هذه المسألة بعين المسلمة التي ترغب في معرفة نقصها لإكماله لا بعين المرأة التي تغطي على نقصها بإنكاره.

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استدل على هذا الأمر في ردِّه على المرأة السائلة، إنما استدل بالحكم الشرعيّ، فجعل حكم الله الشرعيّ بأنّ تقوّم شهادة الرجل بشهادة امرأتين دليلا كافيا على نقص عقلها دون الحاجة إلى دليل من علم النفس أو التشريح، والله يعلم خلقه سبحانه "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" كما أتخذ من حكمه سُبحانه بأن تكُف المرأة عن الصلاة والصيام أيام حيضها دليلا على نقصان

دينها. وهذا الدليل لا يصلح إلا للمؤمنات من النساء، إذ إن قول الله سبحانه دليل مستقل قائم بذاته يُفتَقَرُ إليه في الإثبات ولا يَفْتَقِر إلى شيء، ومن طلبت على قول الله دليلا فلتراجع إيمانها ابتداءً. فلا معنى إذن في الحاجة لإثبات ذلك بأدلة أخرى. والعقل، أخواتي الحبيبات، ليس هو تاج البشرية الأوحد، وإنما قد أهّل الله سبحانه كل مخلوق بما يعينه على أداء وظائفه التي خُلق لأدائها، فخَلق للطير جناحين يحلّق بهما في الهواء، وخلق للسمك زعنفا تضرب به صفحة الماء ويعينها على حركتها فيه.. وهكذا.. ناسبت الخِلقَةُ الغرض منها. والبشر ليسوا استثناء من ذلك، فالمرأة لم تخلق ابتداءً لتكون من رواد علم الفضاء أو من مُكتَشِفَات النظريات الرياضية، وإن أمكنها فهمها وإدراكها، ولكنها خُلِقَت لتكون أمّا حنونا تحيط أبناءها بالرعاية والحنان وتملأ حياتهم بالحب والمودة، وخلقت لتكون زوجة صالحة تملأ حياة زوجها بالحنان والدفء والرعاية، يَنظر إليها فتسرّه ويطلب منها فتطيعه، فهي عونُه على الدنيا لا عون الدنيا عليه، تخفف من حمله ولا تثقله بحملها، ومن ثم خُلقت بقلب أكبر وعاطفة أشد وأقوى من الرجل فهي رقيقة شفافة كنسمة صيف لزوجها وأبنائها، وماذا نريد من كمال العقل، بالله عليكن، إن كان الله سبحانه قد شرّفنا بسعة القلب وفيض العاطفة؟ وإنما الحذر كل الحذر والشقاء كل الشقاء حين تلتفت المرأة عن واجبها الأصليّ ودورها الأساسيّ الذي أعدّها الله لحمِله، لتنافسَ الرجل فيما أهّله الله له باكتمال عقله، تاركة وراء ظهرها ما أهّلها بارئها له باكتمال عاطفتها وقلبها.

وأنتن عارفات بالحال يا رفيقات، فكثيرات منّا لا تعبأ بما يلقاه زوجها من تعب وكد للحصول على لقمة العيش، وإنما تجدها دائما في حالة ضيق وشكاية إذ ترى نفسها أحق بحياة أفضل وبنعمة أكثر مما هي فيه، أيّا كان ما هي فيه من نعمة، فالأمر هنا هو الرضى بالمقسوم والعرفان للجميل وهو ما قصد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه. والشكوى والتضجر من الحياة إنما هو اعتراض على قسمة الله سبحانه واعتراضُ على قَدَرِه. أمّا كفر العشير، فالكفر هنا ليس كفرا بالله وإنما هو نوع آخر من الكفر، وحتى نفهمه جيدا يجب أن نعود للمعنى الأصليّ للكلمة في اللغة العربية، فكلمة "كَفَرَ" تعني في اللغة "غَطّى" قال تعالى"كمثل غيث أَعجب الكُفّار نَبَاتُـهُ" الحديد 20، أي الزرّاع. وقد سُمّي الزارع كافرا (لُغويّا) لأنه يقوم بتغطية الحب في الأرض، واستعمل لفظ "الكفر" في الاصطلاح الشرعيّ ليدل على أن الكافر يغطي نعمة الله عليه ويجحدها. قفزت أم الفضل من مقعدها كاللديغ وقالت بنبرة مُلأت رعبا:"أتقولين أننا كفارٌ يا أم هانئ؟!" قالت أم هانئ:"على رسلك أم الفضل؛ فالكفر نوعان: كفر أكبر وكفر أصغر، وحتى لا أضجركن أقول باختصار: إن الكفرَ الأكبر كفرُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر أو أن يأتي المرء من الأفعال بما هو مناقض للتوحيد، أمّا الكفر الأصغر فهو صيغة من صيغ التعبير عن المعاصي الكبيرة والذنوب العظيمة تحمل وصف الكفر إذ أن فيها من الكفر معنى من المعانيّ وهو تغطية حق الذي ارتُكِبَت

في حقه، ومنها كفر النعمة، ولهذا ترجم البخاريّ هذا الحديث تحت باب"كفر العشير أو كفر دون كفر" وما نحن فيه من هذا القبيل، إذ أن المرأة التي تفعل ما تفعل من شكوى وتضجّر هي "كافرة " بنعمة زوجها عليها ومغطية لحقه. هذا هو معنى الكفر هنا، لا كفر بالله ولكنه كفر بالنعمـة وكفران للعشير.

ثم إن أمر "أذهب للبّ الرجل الحازم منكن" مبنيّ على ما سبقه، إذ أن للمرأة، إن أرادت وإن هيأ لها شيطانها، وسائلها في إثارة حنق عشيرها بما لا يقدر معه على التحكم في أعصابه فيخرج عن طوره ويقول ما لا يقصد ويفعل ما لا يرضى. وقد فعلت ذلك أفضل نساء العالمين من أمهات المؤمنين، وأعـني بهما السيدة عائشة والسيدة حفصة حين أثرن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعلن ما فعلن مما جعله صلى الله عليه وسلم يعتـزلهن جميعا، بل كاد أن يطلقهن، وليس أحزم منه صلى الله عليه وسلم.

والغرض هنا يا أخَواتي المؤمنات ليس الحطّ من قيمة المرأة، بل هو إخبارها بما تَصْلُح له ويَصلُحُ لها، والعقلُ عقلان؛ عقل استدلاليّ يضع النتائج من مقدماتها حيث تجب، ويحلل المواقف ويستنبط الأمور ويَقوى على مواجهة الحياة وما فيها من مثقلات، وهو أداة للرجل أكثر منها للمرأة، وعقل فطريّ يعرف الخطأ والصواب ومواطن الإحسان ومواضع الرفق وهو ما أغدق الله علي المرأة العاقلة منه إن فهمت عن الله سبحانه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم.

الأمر إذن تحذير للنساء لا يجب أن تستخف به المرأة المسلمة، فالأمر أمر جنة أو نار لا أمر مغالبة ومصارعة مع الرجال على أيّ الجنسين أفهم وأيهما أقدر أن يقوم بما يقوم به الآخر. هو أمر جدّ لا أمر هزل، فلننتبـه إلى ذلك ولنفعل فعل النساء الصحابيات حين بذلن ما لديهن دون تردد اتقاءً لما قد يكون من نصيب إحداهن إن أصرّت على أن تغضب زوجها وأن تخرجه عن طوره فيخسر كلاهما الدنيا والآخرة جميعا.

وليس للرجال متعلّق بهذا الحديث، وليس لهم أن يعايروا النساء به، إذ، كما ذكرت، ذلك توجيه وتحذير من رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس هو للغضّ من المرأة أو نكاية فيها، وكثير من الرجال يتخذون من هذا الحديث مطية لأغراضهم، وهذا ما ليس من الشرع في شئ وسيكون للرجال معنا دور نبيّن لهم ما قد يخفى عليهم من أوجه الاستفادة من الحديث في إقامة بنيان بيوتهم على أسس أقوى ودعائم أشد وأرسى، دون أن يتندروا بالمرأة ويعايرونها بما قد لا يكون فيها على وجه الخصوص.

ثم، مرة أخرى، أرى أن الوقت قد أزف للانصراف، وإنّ على كل منكن أن تصرف وقتا تحدّث نفسها بما سمعت وأن تعِـيَ ما عرفت لعل أمرها يصبح كله رشدا إن أطاعت ربها وقنعت بما أكرمها به " وتواعدت السيدات، مرة أخرى، على لقاء قريب.

(6) بين حقٍ ضائع .. وواجب مُضيّع 1

تجمّعت السيدات حول مائدة القهوة في منزل أم عمرو، وبعد القيل والقال والسؤال عن الأحوال، إذا بالمضيفة، أم عمرو، تندفع في بكاء حار متهدج، مما جعل صاحباتها يسرعن إليها ويربتن عليها مهدئات متسائلات: ما الأمر؟ ما الخبر؟ ماذا حدث بالله عليكي، أم عمرو؟.. قالت أم الفضل:" على رسلك أم عمرو، اهتدي بالله، ولتقصي علينا ما حدث، إذ إن لم نتباحث في مشاكلنا القائمة كنا كمن يعالج مجتمعا "أفلاطونيّا" لا يمت للواقع بسبب، أو كهؤلاء "الأرأيتيين" الذين يعالجون مشاكل خيالية لم تقع بعد." قالت أم عمرو: "لك الحق، أم الفضل، وسأروي لكن ماذا حدث مما جعلني أنخرط في البكاء؛ فقد اعتدت أن أقوم ببعض ما يخص البيت من معاملات كدفع الفواتير المستحقة واصطحاب الأولاد إلى الطبيب، كمساعدة له على لأواء العمل ومشاقه، ثم عنّ لي منذ فترة أنني أحتاج إلى الراحة والاسترخاء بدلا من أن أعذب نفسي بمثل هذه الأمور، ثم أليس زوجي هو المسؤول عمّا يخص أمر البيت من كافة احتياجاته؟ فكان أن ذكرت لزوجي ما عزمت عليه من عدم المساعدة في هذه الأمور مرة أخرى. تجهم زوجي ثم قال: ولكنك تعرفين ساعات عملي وما أواجه من مشاق في سبيل إقامة هذا البيت وتعميره، ألا تمدين لي يد المساعدة وأنت قادرة عليها. قلت: بل إنني أفعل ما هو مطلوب مني في أداء الأعمال المنزلية من طعام وكيّ وتنظيف وترتيب، فماذا عليّ بعد ذلك من أن لا أقوم بما هو من واجباتك أصلا، وإنما حقي عليك أن تؤمّن لي خادما يقوم على شؤون البيت، فإني ما تزوجتك لأكون لك ولأبنائك خادما. واحتدم النقاش بيننا ثم تطوّر إلى نزاع، فصراع. وصرنا نتبادل التهم، كلّ ينكر على الآخر حقّا له ويطالبه بواجب عليه، ولم ينتهي الأمر إلاّ وكلانا قد نال من الآخر نيلا وأصابه بما لا يرأب مع الزمن.".

تبادلت السيدات نظرات العطف والتفهم، وتنهدت أم هانئ، وسادت فترة صمت مشحون بالتوتر قطعته أم الفضل قائلة: "أعرف ما تقصدين، أم عمرو، و والله إن هذا لمن قلة التفهّم لدور المرأة في بيتها، فما لزوجك يطالب بأكثر مما له، كأن له حقوقا وليس لك مثلها...أليس أحرى.." قاطعتها أم هانئ بصوت هادئ حازم قائلة: "دعونا لا نشعل النار في الهشيم، ولا نكون عونا للشيطان على هؤلاء الأحباء، ولأنبه إلى خطأ كثيراً ما نقع فيه مما يُفسد على الناس حياتهم، وهو الخلط بين النصح والمجاملة، وأعني أننا إن نجامل أختا في محنتها لا يستلزم أن نهاجم زوجها أو من تخاصم، إنما التهدئة والتوجيه والنصح أولى من تلك المجاملة التي لن تفتأ أن تزيد الأمر اشتعالا والشقاق اتساعا، لننظر إلى الأمر من كافة جوانبه، ثم لنخلص إلى ما فيه الصلاح مما يوافق شرع الله سبحانه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

فنحن الآن في مواجهة زوجين يدعي كل منهما أنه يقوم بواجباته تجاه الطرف الآخر ولا يحصل على حقوقه منه، هكذا بشكل عام، وبتعميم مُعمّد. أقول لك يا سيدتي الفاضلة: أتدّعين القيام بكل الواجبات التي

عليكِ تجاه بيتك ورجلك لا تنقصين منها شيئا؟ ثم أتدّعين أن زوجك ينكر عليك كل حقوقك قاطبة، لا يعطيك منها شيئا؟ ألا لا أظن الأمر كذلك، فهو ضد طبائع الأشياء أن تكون الأمور هكذا على إطلاقها، ليس فيها إلا الشر، إنما هو الغضب والشيطان يزينان لنا أن الأمر سيئ على إطلاقه، فلننتبه لهذا. فكلمات الحق والواجب كلمات عامة حمّـالة أوجه، فما ترينه حقا يراه غيرك فضلا وما ترينه واجبا يراه غيرك نافلة..وهكذا..وحين نتحدّث عن الحياة الزوجية، هنالك يشتد الأمر التباسا وتداخلا، فالحدود بين الحق والواجب تشتبه عند كِلا الطرفين، وانظرن، أخواتي المسلمات، إلى كلمة "الزوجيّـة"، فهي عكس "الفردية" وهي لذلك تحمل معنى الاشتراك والتعددية أصالة، فإن جردناها من فحواها وفتتناها إلى أجزائها، وذهبنا ننظر إلى كل جزء على حدة، نقص قدرها وقلّت قيمتها، فالكل هنا يحمل قيمة أكبر من أجزائه مجتمعة، والحياة "الزوجيـة" تقوم على مفهوم الشراكة بين اثنين، إلاّ إنها شراكة في الحياة بكافة أبعادها لا في ناحية مالية أو عملية منفردة، وهي، من ثم، تقوم على مبدأ التكامل الذي يحمي الكيان كلّه من الانتقاص والخسران.

ومما لا شك فيه أن الشريعة قد رسمت حدودا عامة لحقوق وواجبات طرفي العلاقة؛ ثم تركت تفاصيل الحياة اليومية لبداهة العقل وحكم الفطرة، روى قيس بن سعد عن رسول الله الله عليه وسلم قال:"لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحدٍ لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق" رواه أبو داود في النكاح واللفظ له، والترمذيّ في الرضاع، ابن ماجة في النكاح، وأحمد في المسند، والدارميّ في الصلاة، وهو حديث عام شامل قصد إلى إرساء حق القيادة العام في المنزل، فإن حق القيادة العام لا يصلح أن يتنازعه اثنان، والكلمة الأخيرة يجب أن تقع مسئوليتها على عاتق فرد واحد، ولا يعني هذا مطلقاً أن يستبد الرجل برأيه، وألاّ يكون للمرأة حقها في التعبير عن رأيها وإبداء ما تراه صالحا لها ولعشيرها، ولكن الأمر هنا هو أمر الحق النهائي الثابت في إصدار الكلمة الأخيرة، وقد جعله الله سبحانه في يد الرجل كما جعل عقدة النكاح في يده، لذات الأسباب التي تحدثنا عنها من قبل. وهذا أمر لا عيب فيه ولا منقصة للمرأة، فالسفينة لا تقلع بربّانين، والجيش لا ينتصر بقائدين، ولكنّ الحياة كذلك لا تصلح إن كان الرجل صورة ديكتاتور في منزله، فسلطة الكلمة النهائية لا تعني عدم الاستماع إلى رأي زوجه بل وإمضائه إن كان خيرا لهما جميعا، والقصد هنا هو إصابة الخير لا إنفاذ الرأيّ، ولا غضاضة على من رأي الخير في رأي الغير فأمضاه.

ثم إن الشريعة قد أرست قواعد عامة للرجل يتبعها في رسم منهج تعامله مع أهله، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله الله عليه وسلم: "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" مسلم في الرضاع، النسائي في النكاح، وقال الله عليه وسلم :"استوصوا بالنساء خيرا" البخاري في النكاح، ثم ما رواه سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه أن رسول الله الله عليه وسلم خطب في حجة الوداع فقال: "ألا إن لكم على

نسائكم حقا ولهن عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم فلا يوطئن فرشكم من تكرهون ولا يأذنّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"، وهذه المجموعة من الأحاديث ترسم معالم حقوق المرأة، ثم يأتي دور الفضل من الرجل والتفهم من المرأة. وسنتحدّث عن هذه الأحاديث الشريفة تباعا، وإنما أريد أن أغادر اليوم مبكرة لأن لي غرض أود أن أقضيه قبل حلول الظلام"، وانفض السامر على وعد اللقاء.

(7) بين حقٍ ضائع .. وواجب مُضيّع 2

وفي موعد اللقاء ومكانه، اجتمعت السيدات في بيت إحداهن، وإن زاد عددهن، إذ أحضرت كلّ واحدة منهن صديقة من الراغبات في العلم والمتشوفات إلى المعرفة، مما حدا بأم عمرو، المضيفة، أن تنقل الجلسة إلى الدور تحت الأرضيّ ليتسع المكان للعديدات من الوافدات الجدد، وقد ظهر الاهتمام عليهن جميعا.

أخذت السيدات الحاضرات في مراسم التعارف وأحاديث الود والمجاملة حتى أومأت المضيفة أن قد حان الوقت لنصل من الحديث ما انقطع، فانتبهت السيدات وتطلعن ناحية أم هانئ فشرعت تقول:" أبدأ بحمد الله سبحانه والثناء عليه، ثم أكرّ عائدة إلى ما بدأت في المرة السابقة من حديث عن علاقة الزوجة بزوجها، ورويت في ذلك أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، منها ما رواه النسائي عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" مسلم في الرضاع، النسائي في النكاح. ولعلكن تلحظن ما وُصفت به المرأة في هذا الحديث، أخواتي المؤمنات، إذ وُصِفَت بأنها "صالحة" وقد جُعِل وصف الصالحة حالا للمرأة، وهو ما يلقي ظلالا على هذا الأمر يحسن بالمسلمة أن تتأمّلها بعقلٍ واعٍ وقلبٍ صاحٍ.

فالأمر الأول أن المرأة من المتاع المحبوب المرغوب إذ وصفت، حال كونها صالحة، أنها من خير المتاع، والمتاع مشتق من المتعة، وهي تحمل معاني السرور والراحة والسعادة، إذ لا متعة في التناحر والشقاق والخلاف، فإن بدأ التناحر والخلاف لم تعد المرأة من المتاع، وفقد الزوجان خير متاع الدنيا، الذي هو خير للرجل من المال الكثير والمتاع العريض. وخير للمرأة أن تكون من خير ما يرزق به الرجل من متاع حياته من أن تكون مما ينغّص حياتهما معا ويفقدهما سرّ السعادة والهناء، وذلك بأن تكون "صالحة."

وإذ وصلنا إلى هذه المرحلة، أود أن أفاجئكن بأنني لا أري أن حال الصلاح الذي وصفت به المرأة لتحقق كونها خير المتاع، لم يقصد به أصلا الصلاح الدينيّ أي أنه ليس مقصودا أن خير المتاع، وخير الزوجة، من هي صالحة تقيّة تصلي فرضها وتصوم شهرها وتتقي ربها، لا ليس هذا هو المقصود الأصليّ هنا، وإن كان مقصود بطريق العرض". وهمهمت السيدات الجالسات وتطلعن إلى بعضهن البعض متعجبات لما تقول أم هانئ، وقالت أم الفضل:"ولكن، أم هانئ، تعوّدنا أن نفهم ذلك على أن المرأة الصالحة هي المرأة التقيّة الوَرِعَة، فكيف يكون ذلك أمر ثانويّ لا ضروريّ، وكيف يكون التدين غير مقصود في هذا الحديث؟" قالت أم هانئ:"على رسلك أم الفضل، فإن المقصود هنا هو الصلاح المرتبط بكونها زوجة لا مُطلق الصلاح من كونها مسلمة. فالصلاح يرتبط بحال المرء، فصلاحه حال كونه زوج غير صلاحه حال كونه أبا أو موظفا أو شريك عمل أو غير ذلك من الأحوال التي يمر بها الرجل المسلم والمرأة المسلمة. والزوجة يرتبط

صلاحها كزوجة بأكثر من مجرد صلاحها كمسلمة، فصلاحها كزوجة يعني أن تصلح زوجة بكل ما في الكلمة من معان، ومن هذه المعان أن تكون تقيّة ورِعـة تعرف حقوق ربها عليها وتطيع أوامره وتنتهي عن نواهيه، وهي لذلك تطيع زوجها، من حيث هي زوجة، لأن الله سبحانه أمرها بذلك، ثم من معاني صلاحها كزوجة أن تكون هيّنـة ليّنـة تعكس وصف الأنوثة في كلامها وحركاتها، فَتَدِلُّ على زوجها دلالاً مرغّباً لا دلالا منفّراً، ثم هي تقوم بواجب بيتها من رعاية وتنظيم على أكمل وجه، فهي نظيفة مرتبة نشطة لواجبها، لا يدفعها زوجها لأداء عملها دفع المعلّم للتلميذ الكسول، وهي تعرف أن رجلها راع في بيته ومسؤول عن رعيته، فهي تعطيه حقّه في الاحترام والتقدير ومراعاة أحواله قبل نفسها وأولادها، فهو الأصل والبقية فروع، والفرع لا يقدّم على الأصل بحال وإلا فسدت الدنيا، فإن رأته صامتا احترمت صمته حتى يتحدّث، وإن رأته فرحا شاركته الفرحة، وإن نام هدأت وهدّأت البيت، وإن قام نشطت لِما يريد من غذاء أو كساء، وإن انصرف لعمله ودّعته راجية له سعة الرزق وحسن المنقلب ، وإن عاد هوّنت عليه ما لقيّ من كد ونصب، تتحدث عنه بعزّة وفخر أمام رفيقاتها، وتبيّن وجه الكمال فيه وتدارى أوجه النقص ما استطاعت، وترفع من قدره أمام أبنائه وأهله، وهو يراها دائمة الرضا قانعة بما يأتيها به من عاديات الدنيا ومتاعها، لا تتبرّم ولا تشتكي قدر استطاعتها، فإن البرم والشكوى من الدنيا خُلُقٌ هادم لسعادتهما، يسري مسرى السرطان في الجسد ليقضي عليه. والمرأة مطالبة بأن ترعى بيتها، ورعاية البيت تشمل أكثر من كل ما أسلفت، فهو واجب دائم التجدد، وهو عطاء غير منقطع تبذله المرأة الصالحة.

وأحسبكن تتحدّثن في أنفسكن، ما هذا الحديث! "وكأن الرجل سيد الكون وإله المرأة من دون الله" استغفر الله من ذلك، ولكن يا أخواتي الكريمات أود أن أنبهَكُنّ إلى أمرين عظيميّ الخطر هنا؛ أولهما أننا لم نتناول ما للمرأة على الرجل من حقٍّ بعد، وستسعدن بما أقول في هذا وما قد وجّهت إليه نظر الرجال من قبل في سالف جلساتنا، والأمر الآخر، وهو الأهم، ما رواه أبو داود عن قيس بن سعد وأحمد عن أنس بن مالك وبن ماجة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال:"لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحقّ" أبو داود في النكاح وبن ماجة في النكاح وأحمد في مسند المكثرين واللفظ لأب داود. وهو فضل وحقّ افترضه الله علينا ليس لنا أن نغفل عنه، وإن غفلنا عنه فلنغفل إذا عن غيره من حقوق الله التي افترضها علينا فهو مثلها سواء بسواء. من هنا وَجب علينا أن نكون من الصالحات، أي **الصالحات للزواج**، فإن في ذلك سعادتنا نحن؛ النساء؛ قبل سعادة أزواجنا، فكم من امرأة ظنت أنها تستطيع أن تدرك سعادتها من خلال تحصيل أكبر قدر من الكسل أو زينة الحليّ والذهب أو تخزين المال بما تقتطعه من دخل زوجها لنفسها أو غير ذلك مما لم تراع فيه صلاحها

وصلاح بيتها فانتهى الأمر بها إلى أن قضت حياتها شقيّة تعيسة، ولم تطمئن إلى نجاتها من عذاب الآخرة إذ لم تحقق وصية ربها باحترام زوجها ورعاية بيتها".

انتبهت السيدات إلى أن الوقت قد أزف لانصراف، فأخذن في تجميع حوائجهن استعدادا للمغادرة، وقد تاه فكرهن فيما سمعن من أم هانئ، وصرن يتساءلن "أأدّيت حق زوجي عليّ، أم أنني صرفت أيامي أتشبث بحقي عليه غافلة عما افترضه الله له من حق وما جعل له من فضل"!!

(8) المباح المحرم ..1

قبل موعد اللقاء المعهود، طرق الباب في بيت أم هانئ وظهرت أم أنس على الباب وقد تغير وجهها تغيرا ملحوظا حتى أن أم هانئ قالت لها: "أهلا بك أم أنس، والله لولا معرفتي بك لأنكرتك لما يظهر على وجهك من التغير والتبدل! فما الأمر وما الخبر؟ لعله يكون خيرا إن شاء الله تعالى." وران صمت قصير ما لبث أن قطعته صرخة من الصدر كأنها آهة ثكلى، ما مر على فقد ولدها أيام بل ساعات، زفرتها أم أنس، وظنت معها أم هانئ أن نفس صديقتها قد خرجت مع تلك الزفرة الثكلى. قالت أم هانئ وقد أخذ منها القلق كل مأخذ "عزيزتي، أربئي على نفسك، فما من أمر ينزل على الإنسان إلا وقد جعل الله فيه حلا ومخرجا"، قالت أم أنس وهي لا تكاد تلفظ نفسا إلا لتتعلق بالذي يليه خوفا من أن تزهق روحها:" إلا هذا الأمر يا أم هانئ إلا هذا الأمر". ثم انخرطت في بكاء شديد. وتركتها أم هانئ لحظات حتى هدأت نفسها، ثم أقبلت عليها قائلة "حدثيني الان، ما الخبر؟"، قالت أم أنس :" حدث ما كنت أخشاه طوال عمري، حدث ما تخشاه كل أمرأة أن يقع بها، حدث ما أعتقد أنه سينهي حياتي قبل أوانها، حدث ما..."، قاطعتها أم هانئ قائلة :"على رسلك يا أختاه، وقولي لي ما حدث مرة واحدة، فقد استبد بي القلق وأخذت بي الظنون كلّ مأخذ،" قالت أم أنس: "اتخذ زوجي حليلة أخرى". ران صمت عميق لمدة ثوان، دارت فيه عيني أم أنس في حدقتيها كمن يبتغي مهربا من شر واجهه أو مصيبة توشك أن تقع به. ثم بعد وقت ليس بقليل، قالت أم هانئ :" فهمت عنك أم أنس، ولكني لا أريد أن تُراعي بهذه الدرجة الشديدة فإن الحياة لم تقف بعد ويوم القيامة لم يحن وقته بعد، والساعة لا تزال غيبا من الغيوب، إنما أقصاه أن هذا موقف اجتماعي لم يعتاد عليه الناس منذ عدة مئين من السنين، ولعلنا نتحدث عن وجه الخير فيه ووجه الأذى منه"، صاحت أم أنس صيحة المفجوع: "أو فيه وجه للخير أم هانئ" قالت أم هانئ :"أو ما علمت يا أم أنس ما من أمر من أمور الدنيا إلا وجعله الله مبنيا على اختلاط الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن ما شرعه الله من واجب أو مستحب أو مباح فإنما هو لما غلب فيه الخير على الشر وربت فيه المصلحة على المفسدة" قالت أم أنس وقد هدأ روعها بعض الشيء:"فما وجه المصلحة والخير في هذا الأمر الذي يكاد أن يكون خرابا للبيوت ولوعة وأسى للزوجة الأولى ، جرعات من الحزن تتجرعها المسكينة كل ساعة يقضيها زوجها في بيته الآخر ، بعيدا عن أبنائه وعن بيته الأول الذي شهد نشأتهم ،ثم كيف يأمن عقاب الله حين لا يعدل بينهما ،وهل في مقدوره العدل ،ثم أليس الله سبحانه قد قال :" *ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتمُ* "، بعد أن قال " *وان خفتم ألا تعدلوا فواحدةً* "، أليس هذا منعاً للتعدد ؟ قالت أم هانئ وقد فاضت عيناها بالحنان والرقة لما شعرت من أسى صديقتها وحزنها الأصيل : فليهدأ روعك أختاه، ولنتحدث عن الموقف بعقل مفتوح وبقلب عامر بالإيمان ،إذ إنه بغير الإيمان تزل الإقدام وتتوه العقول ويضل الناس الطريق ، فقد أثرت أمورا وقلت أقوالا لا تمت للشريعة بحال ، وإن

عذرك أنك في هذا الحال من الانزعاج والاضطراب . ولكن دعينا ندرس هذا الموقف من كافة جوانبه ، فالأمر مداره أن رجلا قد أتخذ زوجا ثانية .وان تركنا الشريعة جانباً الآن، فان الرجل يفعل ذلك لأحد أمرين : أولهما أن يكون قد افتقد السعادة والاستقرار والتفاهم في بيته، واتسعت شقة الخلاف بينه وبين زوجته – سواء لسوء فيه أو لسوء فيها ، فان هذا خارج عن موضوعنا ، المهم أن هذه هي النتيجة التي وصل إليها من قرر هذا الأمر، أقول اتسعت شقة الخلاف بينه وبين زوجته لدرجة صارت حياته معها لا تستمد وجودها إلا من إحساس بالمسؤولية تجاه المرأة وتجاه أبنائه الذين كتب عليه أن يرعاهم حتى يشـــبّوا عن الطوق . وقد قال عمر بن الخطاب لمن جاءه يقول :أريد أن أفارق زوجتي ، فإني لا أحبها ، قال عمر : أو كلّ البيوت بنيت على الحب ،فأين الرعاية والتذمم، ويا له من قول بليغ رائع يمثل قمة الرجولة بمعناها في تحمل المسؤولية والصبر على المكروه .والأمر الثاني ، أن الرجل مع رضاه عن زوجته وكونها امرأة بكل معاني الكلمة ، نشيطة ذكية تعرف حقه وتقوم به ، فتسكت إن غضب ،وتضحك أن ضحك ، وتعينه على بلوى الدنيا، أقول، رغم هذا فقد عنّ له أن يتخذ زوجه أخرى لإرضاء حاجة في نفسه ليس إلا، هذه الحاجة قد تكون إنجاب ذرية حيث عطلت الزوجة عن الإنجاب ، أو لمرض داهمها أعجزها عن القيام بحقه، أو مجرد حاجة في نفسه لا دخل لزوجته الأولى بها. ولا تكاد تعدو الأسباب في اتخاذ زوجة أخرى ما ذكرنا. " قالت أم أنس ": "أو يصح لرجل ان يتزوج لمجرد رغبته في ذلك؟" قالت أم هانئ : "دعينا نبدأ الموضوع من أوله. فقد قال تعالى في سورة النساء"*فان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم مثنى وثلاث ورباع،فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا* "النساء٣ . وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية إباحة لتعدد الزوجات إلى الأربعة . والحق أن ذلك لم يكن رفعاً لحد المسموح به إلى الأربع،بل كان تحديداً للمباح بأربع لا أكثر حيث أن العرب كانوا يتزوجون أكثر من ذلك، ما شاء لهم هواهم، فحددها الله سبحانه بأربع حتى يتحقق الغرض من الزواج بهذا القدر لا بأكثر منه. ولننظر في سبب نزول الآية الكريمة من سورة النساء ،روى البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن سبب نزول الآية قالت : " يابن أختي هذه اليتيمة في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير قسط في صداقها ،فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغن بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن"رواه البخاري ، وأذكر لك هنا بعض ما يجب أن نتعلمه من القواعد الشرعية التي تحكم النظر في النصوص الشرعية حتى نفهمها على الوجه الصحيح. أولا أختاه، فان معرفة سبب نزول الآية من القرآن في غاية الأهمية لإدراك معناها وما فيها من أحكام ،ومعرفة عامّها وخاصّها. وهذه الآيات الكريمة عامة في التنبيه على معاملة المسلمين فيمن هن في رعايتهم من اليتامى بطريق المنطوق، ثم بينت بطريق المفهوم أن المسلم له أن يتزوج اثنتين وثلاث ورباع من النساء غير من في حجره من اليتامى. ولا يعني هذا،كما قال بعض

مؤولة النصوص المغرضين أن هذه الآية خاصة في ظروف من في حجره يتامى فقط، إذ إن التعدد ليس له معنى في هذه الحالة فقط، وإنما هي لإنشاء حكم عام يندرج تحته من في حجره يتامى بطريق العموم. أمّا ما ذكره البعض الآخر من المغرضين أو مم قّل فهمه واضمحل علمه، أن الجمع بين آية النساء ٣" *وأن خفتم ألا تعدلوا فواحدة* "وآية النساء ١٢٩ " *ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم*"، فيقرؤوهما متتابعتين ثم يخرجوا من هذا الخلط بأن الله منع التعدد بنص الآية، إذ إنه سبحانه قرر أن الرجال لن يعدلوا بين النساء! وهذا الأمر من أسخف التحريف لكتاب الله سبحانه ، فانه، مع أن الآيتين ليستا متتابعين، فان الله سبحانه لا يحتاج إلى أن يمنح ثم يمنع في آيتين من آياته، يمنح بنصّ واضح صريح ،ثم يمنع بنصّ مغطى مشوش، والأولى أن يقول بطريق واضح أن الزواج بأكثر من واحدة أصبح ممنوعا بعد أن كان مباحاً، كما فعل في تحريم الخمر ،حيث تدرج في بيان خبائثها مع استمرارية إباحتها، ثم منعها بالكلية في قوله تعالى "*قل أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون*"، فالتحريم هنا واضح صريح، أتى بعد إعداد متدرج من بيان أنها تشتمل على نفع قليل وضرر كثير ، وأن ضررها يربو على نفعها، ثم ضرر الفعل نفسه (شرب الخمر)، ثم تحريمها مطلقاً، ولكن الحالة هنا معكوسة، إذ انه ليس هناك تدرج في بيان ضرر التعدد ابتداءً،بل العكس، فقد أباح الله سبحانه التعدد بآيات صريحة في مقام المنّ على عباده، فلِما يعرج على ما أباح فيحرّمه بهذه الطريقة التي هي مدارة وتلميح لا تشريع واضح صريح!هذا لا يكون .

وقوله الله تعالى "*فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة* "أنما هو من قبيل التحذير الخاص الذي يخاطب في الرجل ضميره ودينه،لا أنه يخاطب السلطة الحاكمة فتمنع أو تسمح،والخوف المقصود في قوله تعالى "فان خفتم"يعني أن على الرجل أن يمتحن نفسه فان آنس قدرة على العدل فلا حرج عليه في أن يتخذ زوجاً واثنتين وثلاثة ورباع، وان رأى من نفسه عجز عن العدل، فعليه وحده أن يعدل عن التعدد ،فان حسابه في هذا الظلم سيكون على الله وحده، وليس هناك عقوبة دنيوية أو حدّاً على الظلم إن وقع في هذه الحالة فالمعوّل على الرجل نفسه ،هو وحده الذي يحدد إمكانية العدل أو عدمه،ويتخذ قراره على أساس من تقوى الله ومراعاة دينه .

وآية" *ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم* "قد تحدث عنها الناس كثيرا وتناولوها بالتفسير المغلوط ،أن الله سبحانه هنا قد بيّن استحالة العدل بين النساء ،وبما إنه سبحانه قد اشترط العدل للتعدد في الآية السابقة ،فهذا يعني تحريم التعدد! ويالها من دورة الله سبحانه غنيّ عنها كما أشرت من قبل، فالله سبحانه لم يشترط العدل للتعدد كما بينت لك من قبل، بل ربطه بقرار الرجل الحر بناء على خوفه من إقامة العدل أو عدمه، والآية المذكورة هي آية خبرية لا إنشائية، أي لأنها تخبر عن أمر كائن لا أنها تنشأ حكماً شرعيا، والفرق بينهما

كبير ، وهذا الخلط هو في حقيقة الأمر سبب كل هذا الهراء عن تحريم التعدد، وما تبعه من شعور النساء في عصرنا هذا بوقوع الظلم ومجانبة الشريعة في أمره.

نظرت أم أنس في ساعتها، وتنهدت قائلة "أخشى يا أختاه أنني يجب ان أغادر الآن، لأعود إلى المنزل قبل حلول الظلام، ولكن لعلنا أن نستكمل الحديث عن هذا الموضوع في لقاءنا القادم مع بقية الأخوات لتتم به الفائدة إن شاء الله ". وغادرت أم أنس منزل صديقتها على أمل العودة في القريب العاجل .

(9) المباح المحرّم ..2

وأخيرا، جاء موعد اللقاء وكأنة تأخر خمسين عاما مرت على أم أنس منذُ أن صرّحت لأخواتها ما أقدم عليه زوجها من زواج، وما تعيشه من لوعة وحرقة، وإن خفف عنها بعض ذلك ما سمعته من أم أنس في الجلسة السابقة.

ثم حين التأم الشمل واستقر المقام، شرعت أم هانئ قائلة بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله: حدثتكن أخواتي الفاضلات في لقائنا السابق, عن آيات الله الكريمة التي انحرف بها المغرضون أو من لم يستقيم لهم الفهم عن أصل وضعها، حيث يقول الله سبحانه في سورة النساء "فإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم, ذلك أدنى ألا تعولوا" النساء ٣، ثم يقول عز من قائل في النساء ١٢٩"ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم " وبينهما ٩٩ آية ! فجمع بينهما جامع وجعل الجزم بعدم القدرة على العدل منعا من التعدد المباح في الآية الاولى ! لكن هذا خطأ فاحش في تناول الآيات القرآنية, اذ إن الآية الثانية هي آية خبرية لا آية انشائية أي إنها تخبر عن أمر كائن لا إنها تنشأ حكما يُتبع. ثم إن الله سبحانه قد قال في الآية نفسها "فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة" وفي هذا بيانٌ لما يجب أن يكون عليه العدل المطلوب شرعا، فكأن الله سبحانه يقول " يابني آدم، أنا أعلم بأن العدل المطلق الذي لا ميل فيه قط هو غير مقدور لكم، فإنكم إن تزوجتم أكثر من واحدة لن تستطيعوا أن تعدلوا العدل المطلق لما في طبيعتكم من النقص، ولكن هذا لا يمنع من أن التعدد حلال مباح لكم، واذن فإن العدل المطلوب منكم هو العدل الممكن لبني الانسان، فان الله لا يكلف نفسا الا وسعها، وهو بأن لا تميلوا " كل الميل" فتصبح الزوجة الأخرى كالمعلقة، لا هي عزبة ولا هي متزوجة، و هذا ما فيه من الظلم ما فيه، ويكون اذن "بعض الميل" مسموح. وقد حدده الفقهاء بالميل القلبي كما في حديث عائشة قالت "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول "اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك " رواه الترمذي في كتاب النكاح، قال "إنما يعني به المحبة والمودة" أو في المعاشرة الزوجية كما ذكرَ بن قدامة في المغني: قال: "و لو وطئَ زوجتهُ و لَم يطأ الأُخرى فليسَ بعاصٍ" لا نعلمُ خلافاً بينَ أهل العلم في أنهُ لا تجب التسويه بينَ النساء في الجماع، وهو مذهب مالك و الشافعيّ، وذلك لأنَ الجماع طريقهُ الشهوه و الميل، و لا سبيلَ إلى التسويه بينهُنَ في ذلك، فأن قلبه قد يميل إلى أحداهما دون الأخرى. قال تعالى: " و لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء و لو حرصتم", قال عبيده السلماني: "في الحب و الجماع، وإن أمكنت التسويه بينهما كان أحسن وأولى فإنه أبلغ في العدل" المغني ج ٧ ص٢٥.

ثم إن ما ردده كثير من الناس، بعلم مغرضٍ أو بجهل مردٍ، فيما رواه البخاري من حديث مسعود بن مخرمه قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول وهو على المنبر "إن بني هشام بن المغيره قد إستأذنوا في أن ينكِحوا إبنتهم عليّ بن أبي طالب فلا آذن ثمّ لا آذن ثمّ لا آذن، إلا إن يريد بن أبي طالب أن يطلق إبنتي و ينكح إبنتهم، إنما هيّ بضعةٌ مني يريبني ما أرابها و يؤذيني ما أذاها هكذا قال" البخاري كتاب النكاح.

وقد وهم الكثير من "الطيبين"، وأشاع الكثير من "المغرضين" أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد منع التعدد بهذا الحديث، وسبحان الله العظيم، يمنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر قد أحله الله سبحانه في القرآن الذي أنزل عليه بل وفعله هو نفسه صلى الله عليه وسلم تسع مرات! والحق أن يفهم الحديث على وجهه، لا أن تضرب الشريعة بعضها ببعض. ولنفهم هذا الأمر يا أختي العزيزة، فلنعلم أن المخطوبة كانت جويرية- على المشهور من أسمها- بنت أبي جهل، همهمت النساء " أبا جهل، يا أم الفضل، أبا جهل؟! قالت أم الفضل :" نعم بنت أبي جهل الذي عادى الاسلام ورسوله عداء شديدا بغيضا لا مزيد عليه, فابنته هي التي عرض أهلها على علي بن أبي طالب أن يتزوجها. وهو ما يفسر سر هذا المنع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، اذ كيف تجتمع اثنتان، أبو الأولى صلى الله عليه وسلم وأبو الاخرى، أبا جهل لعنة الله عليه، في بيت واحد؟ هذا لا يكون. والحديث فيه زيادة في رواية الزهري:" واني لست أحرم حلالا ولا أحلل حراما، ولكن والله لا تجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل أبدا". اذن، حسمت هذه الزيادة الأمر وقطعت لسان المتخرصين، فإن السبب هنا هو ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم منكرا وهو أن تجتمع ابنته، بنت سيد المرسلين وبنت عدو الله اللدود في بيت واحد، وما في ذلك من أذى لفاطمة، وكل ما يؤذيها يؤذيه. ثم كذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أشفق على فاطمة أن تصيبها الغيرة، وهو شعور طبيعي انساني مقبول بحدوده، رغم ايلامه في بعض الأحيان، ففاطمة رضى الله عنها، كما يقول الحافظ في الفتح " كانت أصيبت بأمها ثم بأخواتها واحدة بعد واحدة، فلم يبقى لها من تستأنس به ممن يخفف عليها الأمر ممن تفضي اليه بسرها اذا حصلت لها الغيرة" الفتح ج٩ ص ٣٦٤.

ولهذا ترجم البخاري لهذا الحديث تحت عنوان " باب ذبّ الرجل عن ابنته في الغيرة والانصاف". ثم إنه في زيادة للزهري "وأنا أتخوف أن تفتن في دينها" قال بن حجر" يعني أنها لا تصبر على الغيرة فيقع منها في حق زوجها في حال الغضب ما لا يليق بحالها في الدين" ولا ننسى اخواتي الكريمات أن فاطمة هي فاطمة سيدة نساء العالمين، فهي ليست كأحدنا، حتى أن بن حجر قد صرح برأيه في الأمر فقال "والذي يظهر لي أنه لا يبعد أن يعد في خصائص النبي صلى الله عليه وسلم، أن لا يتزوج على بناته ويحتمل أن يكون ذلك خاصا بفاطمة عليها السلام" فتح الباري ج٩ ص ٣٦٤. ثم أمرآخرهو أنه كما قال ابن حجر، لو أن فاطمة رضيت لما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزواج كما ذكر بن حجر ج٩ ص ٣٦٥.

من هذا كله نرى أن الآستشهاد بهذا الحديث لا يصح، بل لا يليق، فان مقام فاطمة ليس كمقام غيرها من النساء، ومقام أبيها ليس كمقام أحد من العالمين، ومع ذلك فقد صرح صلى الله عليه وسلم أنه لا يحرم حلالا ولا يحلل حراما، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوج هو نفسه بتسع لا يجرأ أحد يدعي الاسلام أن يقول أنه أضر بهم أو لم يراع لهن خاطرا. وهو صلى الله عليه وسلم الذي حبب الى أمته التعدد. ترجم الحافظ بن حجر في فتح الباري تحت عنوان " باب كثرة النساء " من حديث البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال: قال" ابن عباس هل تزوجت؟ قلت :لا، قال: فتزوج فان خير هذه الامة أكثرها نساء" فتح الباري كتب النكاح ج٩ ص ١٢٤.

قالت النساء: حان وقت الرحيل يا أم هانئ، فما نراك الا آخذة في هذا الحديث حتى تطلع شمس اليوم الآخر! وقد آن أوان الانصراف لنقوم بحق بيوتنا فحفظ حقها واجب مشروع . قالت أم الفضل: انطلقن راشدات والى لقاء قريب, ولحديثنا بقية.

(10) المباح المحرّم ..3

انعقد اللقاء مرة أخرى في بيت أم أنس، وسارعت كل امرأة تأخذ مكانها وكأنهن يردن أن يستكملن الحديث بأسرع ما يمكن أن يكون. قالت أم هانئ : "فكما رأيتن يا أخوات، أن موضوع زواج علي رضى الله عنه على فاطمة عليها السلام، ليس من هذا الباب الذي نتحدث فيه، وإنما هو من باب خصوصيات الرسول صلى الله عليه وسلم كما رجح بن حجر، أو هو من قبيل الحرص عليها لما أصابها في حياتها القصيرة الثمينة من فقد أحبتها ومن تلجأ إليهم وقت الغضب. وكذلك لعدم صلاحية أن تجتمع بنت نبي الله وبنت عدو الله في بيت واحد. وإني أحب أضيف أمرا آخر من عند نفسي فإن أصبت فهو من عند الله سبحانه وإن أخطأت فهو من الشيطان ومني، أنه قد يكون خشية أن تحزن فاطمة فيحزن الرسول صلى الله عليه وسلم لحزنها فيكون هذا سببا في احتسابه ذنبا لعلي، إذ إن كل من يسبب ألما أو إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقترف به إثما، وإن كان هذا الأمر ليس من قبيل ما يستخلص من نص الحديث، ولكن بحسبي أن بن حجر قد أشار إلى قريب منه.

ومن عجيب ما سمعت في الأيام الخالية أن بعض من انتسب إلى الإسلام، وحمل رواسب الجاهلية الغربية وعفان العلمانية، يحتج بقوله تعالى في سورة النور:" وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عليمٌ" النور 32. احتج هؤلاء من النسوة وأشباه الرجال، إلى أن ذلك منع من التعدد إذ أن فيه الأمر بتزويج الأيامى، والأيم من ليس له زوجة او من ليس لها زوج! فيكون هذا منع من تزويج من له زوجةٌ! هذا أخواتي الفاضلات من غرائب الله في خلقه! فإن الأمر هنا واقع على شيئ يختلف جد الإختلاف عن إباحة التعدد في آية النساء. ففي سورة النور يحث سبحانه المؤمنون على أن لايرفضوا من تقدم لزواج بناتهن البكر إن كان كفئا ترضاه لنفسها، فإن يفعلوا تنتشر الفتنة ويعم الحرام. وليست سورة النساء كلها قي بيان حكم الزنا والحجاب وغض البصر وما من شأنه أن يحمي المجتمع من شر العزوبة، فلا غرو أن يكون فيها الحث على تزويج الأيامى ليمنع بهذا ما يمكن أن يكون من انتشار الفاحشة لوجود من يعش عازبا من ذكر أو انثى. ولكن حدثوني بربكم، ما شأن هذا بما هو من إباحة التعدد في سورة النساء!؟ ألا يمكن أن يبيح الله سبحانه التعدد للمتزوج، وكذلك يحث العزب من الرجال و النساء أن يتزوج للإحصان والتمسك بالفضيلة!؟ ولقد والله راجعت ما راجعت من عشرات التفاسير قديمها و حديثها، فما رأيت أحدا ألمح بنسخ آية النساء، أفيأتي اليوم متهتك ضعيف العقل مريض النفس يفصح بالنسخ ويجيئ بما لم يأت به الأولون ولا الآخرون!؟ ثم إن إعمال الكلام أولى من إهماله كما هو مقرر في القواعد الفقهية، فلم نهمل قول الله تعالى : "فانكِحُوا ماطاب لكم من النساء..." الآية إن كان لها وجه صحيح تفهم به كما بينا! اللهم إلا الهوى.

ثم، أخواتي المسلمات، دعونا نختبر أمر التعدد بمنظار العقل والحكمة، بعد أن عرفنا موقف الشرع فيه، فالأوضاع الاجتماعية معقدة تعقيدا شديدا، والشريعة حين أباحت ما أباحت وحظرت ما حظرت، إنما هدفها الأول هو جلب مصالح العباد وتحقيق منافعهم في الدنيا و الآخرة على وجه الكمال و التمام. فإن قد ينشأ في آلاف الملايين من الأوضاع الإجتماعية ما يستلزم أن يتخذ الرجل حليلة أخرى فيكون ذلك منفعة له ومنفعة لها، بل وفي بعض الأحيان منفعة للزوجة الأولى. وأنتن عارفات بما تكون عليه حال امرأة لم يصبها حظها في الزواج حتى كاد أن يتقدم بها العمر، أو حال امرأة تعثر بها قدرها في زواج أول، خرجت منه بجراحات أليمة ووحدة موحشة. أو تكون المرأة ممن أنعم الله عليها بالإسلام فتركت دين قومها ولجأت إلى حزب الله من النساء والرجال، تريد استبدال قوم بقوم وأحباب بأحباب، وقد يكون لهؤلاء النسوة من يلجأن إليه، أو قد لايكون، كما في حالة من بدلت دينها، فماذا يفعلن في هذا الحال، أيبقين على عزوبتهن حتى وإن تقدم لهن من عنده حليلة أخرى، منتظرات لمن لا حليلة له!؟ أم يشاركن هذه الحليلة الأولى فيما أراد لها الله من الخير؟ ثم ما هو دور رجال المسلمين في هذا الحال، أيقعدن عن أن يأوين مثل هؤلاء النسوة، اللاتي لم يتقدم لهن من يؤويهن، أو تقدم لهن من أحال حياتهن خرابا!؟ أيكون ترك مثل هؤلاء النسوة الضعاف أمر من أمور الرجولة ومظهر من مظاهر النخوة، إن كان الرجل قادرا على أن يقوم بحق بيتين!؟ ثم كيف يكون هذا المجتمع الذي تقطعت فيه أوصار الرحمة ودوافع الأخوة بين المسلمات وعلا فيه صوت الأنانية المحضة على نداء الضمير والمروءة!؟ إننا نتحدث هنا عن نساء من بنات جنسنا يا أخوات، قد يمكن أن تكون أي منا هي هذه المرأة التي ننكر عليها رضاها بالتعدد. إنهن أخوات لنا يا أخوات، أخوات مسلمات قانتات عابدات، أنعينهن على الشيطان أم نعين الشيطان عليهن!؟ و المرأة لاتتقدم لطلب يد الرجل، فهي تنتظر من يتقدم لطلب يدها، فهي في هذا تابعة لا متبوعة، فكيف نلومها على اقتناص فرصة سنحت لها تقيها غوائل الدنيا وتمنع عنها شرورها!؟ ثم كيف نرى مجتمع كثرت فيه النساء غير المتزوجات، نساء يقفن وحدهن لمواجهة الدنيا، يتلاعب بهن شيطان الجن حينا و تتلاعب بهن شياطين الإنس أحيانا أخرى. ثم إن لهن متطلبات نفسية وعاطفية كما يعلم جميعنا، فهن من جنسنا كما ذكرت، فكيف بالله عليكن يكون الحال إن أجبرتهن أخواتهن المسلمات على أن يبقين في المجتمعات طليقات ليس لديهن من يعصمهن من الخطأ و الزلل!؟ وهؤلاء ليسوا قلة فينا يا أخوات و لكنهن كثرة و فيرة هي إلى ازدياد لا إلى نقصان، روى البخاري في "باب يقل الرجال ويكثر النساء" قال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم ترى الرجل الواحد يتبعه أربعين امرأة يلذن به من قلة الرجال وكثرة النساء. الفتح ج9 ص 366.

ثم فوق هذا وبعده، فإن الرجل الذي اتخذ حليلة أخرى أتراه فعل ذلك لمجرد أن يؤذي امرأته أم لسبب ظاهر أو باطن!؟ فإن كان قد فعل ذلك ليظلم امرأته فقد ظلم نفسه و ظلم امرأتيه جميعا، فويل له من عقاب الله

سبحانه، أما إذا كان قد فعل ذلك لأمر مشروع، كحاجة في نفسه يرضيها في الحلال، ومشروع له أن يرضي ما تستدعيه الطبيعة البشرية بمقتضى ما شرع الله لا بالحرام المنهي عنه، أولغرض مشروع آخر كالإنجاب أو لمرض تعانيه زوجته الأولى أو لطلب شرف الإنتساب إلى شرفاء في قومه أو لغير ذلك مما ليس فيه خوض في حرام، أحل له ذلك، بل وكان مندوبا له محبوب فعله في بعض الأحيان، كإحصانه امرأة وحيدة والإنفاق على عيالها، أو قد يكون واجبا عليه إن تحقق منه أنه سيقع في الحرام إن لم يلبي نداء الحاجة الملحة في نفسه بحليلة أخرى، تماما كما هو الحال في مقتضيات الزواج الأول.

توقفت أم هانئ لحظات لتلتقط أنفاسها، فقالت أم الفضل:"ولكن لا شك في أن المرأة، بل أعني المرأتين، تعانيان من غيرة ووحشة وفراغ في الوقت الذي يكون فيه زوجها في البيت الآخر، أفلا يجب أن يكون هذا مبررا لعدم استحباب التعدد، بل لمنعه جملة واحدة؟" قالت أم أنس:"والله لو أن الشريعة منعت كل أمر فيه ألم أو بعض أذى ما بقي فيها من المباح شيئز ولكن الأمر أخواتي الراشدات، أمر الغلبة، غلبة المصلحة على المفسدة والفائدة على الخسارة، والنفع على الضرر، فإنه كما نعلم، ليس هناك أمر إلا وله جانبان، جانب مصلحة وخير وجانب مفسدة وشر، فإن رجح جانب المصلحة على المفسدة، كان الأمر مباحا أو مندوبا أو واجبا بحسب حاله، وإن كان العكس فالعكس، وانظرن إلى الجهاد، وهو أسمى الواجبات الشرعية وأعلاها قدرا، فإنه مع ذلك يستدعي التعرض لفقدان النفس وألم القتل و فيه ما فيه من الأذى، ولكن لما رجحت مصلحة الجهاد على مفسدة تحمل أذى القتل صار واجبا، وفي حالتنا هذه، فإن المصالح المتحققة من التعدد تربو على مفاسده بلا شك، فإنه يختص بثلاثة أفراد، الزوج والمرأتان، وفيه مصلحة متحققة لاثنين منهما على أقل تقدير، ونعني بهما الزوج و الزوجة الثانية، لما سبق أن ذكرنا من أسباب استدعت كليهما للإقدام عليه، ثم إن مصلحة الجماعة أو المجتمع مقدمة على مصلحة الفرد، كذلك فإن الحالة الإجتماعية هي التي تدفع إلى قيام هذا الشكل من العلاقات لسد خلة قد تهدم الكيان الإجتماعي إن عولجت بشكل آخر.
والمرأة المسلمة يجب أن تدرك أن هذا هو مدار الشريعة وأمر الله الذي رآه صالحا للبشر في هذا الموقف.
ثم إنه لاشك أن المرأة تتعرض لأذى وغيره، وتشعر بفراغ في غياب زوجها، ولكن هل هذه فقط هي الحالة التي يمكن أن تشعر فيها المرأة بالفراغ و الأذى؟ أليس هناك أحوال أخرى تستدعي نفس الشعور كسفر الزوج لقضاء حاجة دنيوية؟ أو مرض الزوج فهو حاضر كالغائب؟ وأنا أدرك شعور المرأة في هذه الحالة ولا أريد أن انتقص منه أو أهونه عليعها، ولكن هذه هي حكمة الله السرمدية وقضاء النافذ، أن يكون هذا الحل هو أسلم الحلول وأقربها للصلاح في بعض المواقف العائلية والإنسانية، رغم ما فيه من ألم ووحشة وفراغ. على المرأة أن تستحضر ما كانت عليه زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فهن قدوتنا في الحياة، وقد كانت لكل واحدة منهن سبع نساء يشاركنها في رجل واحد، هو أكمل الرجال طرا بأبي هو وأمي. فما

ترضون من ذلك إلا قدر الطبيعة البشرية المقبولة التي يمكن أن يتعرض بموجبها الناس لأذى من مرض أو فقر أو مشاركة في زوج. وأهمس في أذنكن يا أخوات، أنها الأنانية التي تجعلنا لانقبل الشركة، فما علينا إن استطاع الرجل الذي أقام بيتا في أن يقيم غيره؟ أليس في هذا ثواب له لإنفاقه وإحصانه لإمرأة مسلمة عفيفة، وثواب لنا لرضانا بأن نقتسم ما أعطانا الله مع غيرنا من المسلمات؟ الإسلام يا أخوات ليس كلمات يلفظها اللسان وتتحرك بها الشفاه وكفى، لا، بل هو حقيقة يعيشها الناس ويرضونها في جدهم و لهوهم، في فرحهم و حزنهم، في سعادتهم وشقائهم، في لذتهم و ألمهم، في حياتهم كلها بلا استثناء، فإن لم تكن كذلك كان دينا منقوصا ليس لنا منه إلا اسمه، ولا من الحق إلا رمزه، يروى عن "رابعة بنت إسماعيل" أنها تزوجت أحمد بن الحواري الزاهد لأنها كانت امرأة كثيرة المال وودت أن ينفق أحمد مالها في أوجه الخير على رفاقه. قال أحمد: تزوجتها، فكان في منزلنا كنّ من جصّ، ففنى من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل، فضلا عمن غسل بالأشنان.وقال: تزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمني الطيبات و تطيبني و تقول: اذهب بنشاطك إلى سائر زوجاتك"! ذلك هو الكرم كل الكرم، لا أن تنابذ المرأة بالعداء، وتبيت تكيد لها كيدا وتتمنى قهرها.

إنه جزء من جهادنا في الله يا أخوات، أليس جهاد المرأة في بيتها معادل لجهاد الرجل في ساحات الوغى؟ ألسنا نؤمن بكل الكتاب، لا نؤمن ببعضه ونكفر ببعض؟ والتعدد مما أباحه الله سبحانه في الكتاب، ولم يجعل له داعيا إلا ما ارتآه صاحب الحق في أن يتخذ حليلة أخرى، و..."، هنا قالت أم عمرو:" على رسلك أم الفضل، أليس للتعدد أسباب وشروط يجب أن تتحقق حتى يكن للرجل حق في أن يتزوج الثانية؟" قالت أم الفضل:" هذا ولا شك هو ما يشاع في أوساط العامة وتشجعه السلطة الحاكمة ومن اتخذ العلمانية دينا، ولكن هذا أمر يطول شرحه لعلنا نجتمع على مدارسته في اللقاء التالي إن شاء الله تعالى".